صديقى المستر اديسون

ألف هذا الكتاب هنرى فورد مع صمويل كروثر وعربه على إسلام باشا.

بدأت حياة اديسون الحقيقية فى بورت هيرون فى منزل دمرته النيران من زمن وأمضى اديسون فى مدرسة بورت هيرون، ثلاثة أشهر، وهذا هو كل ما ناله من تعليم مدرسى. ومع هذا تعلم اديسون القراءة سريعا وظل يقرأ حياته كلها... يقول المؤلف :

(من الصعب أن نذكر كتابا هاما فى أى موضوع لم يكن قرأه إدسون وكان أول كتاب قرأه فى العلوم، كتاب فى الفلسفة الطبيعية والتجريبية تأليف رتشارد جرين باركار المطبوع سنة ١٨٥٦ وكتب اديسون على غلاف الكتاب.

(كتاب باركار فى الفلسفة أول كتاب فى العلوم قرأته وأنا فى التاسعة من عمرى واخترته كأول كتاب أستطيع فهمه) !

كان هذا الكتاب يحوى جميع ما كان معروفا عن العلوم تقريبا فى ذلك الوقت وما كان معروفا عن الكيمياء ومئات التجارب المختلفة.

وقد قام اديسون مع الوقت بعمل جميع التجارب التى بالكتاب مبتدئا بالتجارب الكيمائية. وهنا قصرت موارده المالية عن تغطية هذه التجارب مما دفعه وهو فى الثالثة عشرة من عمره أن يعمل بائع صحف فى قطار السكة الحديد بين بورت هيرون ودترويت.

وهو أحد القلائل من العلماء العالميين، الذى أمكنه أن يقف بنفسه على قدميه ويكسب المال اللازم لأعماله التى يراها نافعة مفيدة.

ومن الطريف أنه أنشأ معملا صغيرا بعربة الأمتعة الملحقة بالقطار حيث كان يحتفظ بجرائده وحاجاته. وقد استنفدت احتياجات هذا العمل جميع موارده مما اضطره إلى البحث عن موارد جديدة فأصدر صحيفة صغيرة هى (ويكلى هرالد) وكان يطبعها فى القطار.

يقول صديقه العظيم فورد :(ليس المهم أن اديسون الشاب نشر صحيفة لأول مرة تصدر من قطار، وأنه استطاع فى هذه السن المبكرة أن تكون صحيفة من الدرجة الأولى، ولكن المسألة أنه كانت بنفسه رغبة لاتُقهر أن يكون عالما، حتى إن عبقريته نمت فى جميع الاتجاهات).

فقد اديسون سمعه تماما عقب عملية «النتوء الحلمى» ولكنه كان من القادرين على تحويل المحنة إلى منحة فقد أخذ يبحث عما إذا كان يوجد أى عمل يمكن للرجل الأصم أن يكون فيه أكثر نفعا «يقول اديسون».

(كان هذا الصمم عظيم النفع لى فى مختلف النواحى، فعندما كنت بمكتب التليفون كنت لا أسمع غير الجهاز الذى أمامى، فلم تشوش على الأجهزة الأخرى كما يحدث مع غيرى من العمال، وكذلك عند تجاربى للتليفون كان علىّ أن أقوى الجهاز المرسل للرسائل لأتمكن من الاستماع مما سهل استعمال التليفون تجاريا، إذ أن السماعة المغنطة التى كانت معروفة حينئذ كانت من الضعف بحيث لا يمكن معها استعمال التليفون تجاريا، وهذا ما حدث أيضا بالنسبة للفونوغراف الذى كان أكثر عيوبه أداء النغمات الموسيقية العالية والمصاحبة والصفير الملازم لبعض الحروف فى الكلام فاشتغلت أكثر من سنة، عشرين ساعة يوميا ومنها أيام الآحاد وغيرها لإتقان كلمة «اسيبيسى» وأدائها جيدا بالفونوغراف، فلما أتممت ذلك تأكدت أن كل شئ قد هان وهذا ما حصل بالفعل، كما أن صممى أيضا قد حفظ أعصابى سليمة إذ لايصل إلى سمعى الكثير من الأصوات المزعجة) .

فى سنة ١٨٦٢ رأى اديسون بمحطة مونت كليمانز، الطفلة الصغيرة ابنة المستر ماكنزى ناظر المحطة تجرى على شريط السكة الحديد أمام عربة المناورات فأسرع بالتقاطها وأخذها إلى والدها.

واعترافا بجميله، علمه والدها فن التلغراف وسرعان ما التقط الشاب هذا الفن وصار بسرعة عاملا خبيرا كأحسن عمال التلغراف بالبلاد إن لم يكن أحسنهم وفى مقدوره إرسال الإشارات أو استقبالها من أى عامل آخر.

بل كان هذا سببا لاتجاهه إلى الكهرباء وبداية لحياة اديسون الصناعية التى أخرجت لنا المصباح الكهربى وهذا التنظيم الجديد للقوة الكهربية الذى أدى إلى الصناعة الحديثة. ومن المألوف أن يدعى هذا العهد عصر الصناعة، وكان الأجدر أن ندعوه عصر اديسون. إنه حقق لأمريكا الاستقلال الاقتصادى باختراعاته التى وفرت العدد والآلات.. ثم قدرته على ربط العلوم بمسائل الحياة اليومية للمجتمع.

ويقول (فورد) (لولا ماوفره لنا اديسون من قوة محركة سهلة النقل وما يسره من سبل المواصلات لما صرنا إلى ما نحن عليه من انتعاش هو فى الحقيقة، (موجده) والأمثلة كثيرة :

- ايجاد نظام كامل جديد للمولد الكهربى حرر الصناعة من استعمال السيور وعامود الإدارة وصار فى الإمكان وضع موتور كهربى خاص لكل آلة.

- جعل اديسون الكهرباء أداة للنفع العام تدخلت فى جميع أدوار حياتنا كما أدت اختراعات اديسون إلى استعمال التليفون والتوسع فى استعمال التلغراف كوسيلة رخيصة للتخابر وهو الذى جعل من الآلة الكاتبة أداة صالحة للمكاتب.

- كان لإديسون الفضل الأول فى الجرامافون والسينما والراديو ولو أنه لم يواصل العمل فى ميدان الراديو لانهماكه فى أعمال أخرى لاتحتمل التأجيل.

- كان لإديسون اليد الطولى فى طريقة عمل الاسمنت وفى تركيب وخلط الخرسانة..

- كان اديسون وراء استخراج الحديد من خاماته الفقيرة به.

وقد رفض اديسون بيع حقوقه فى الإنارة بالكهرباء وتمسك بأن توجد المحطة تحت إشرافه حتى لايترك عملية الإنارة فى أيد غير قادرة ويعرضها للإهمال. وقد رفض عروضا بملايين الدولارات كان فى أشد الحاجة إليها لأعماله.

ومن الطريف أن «اديسون» سجل سنة ١٨٦٨ طريقة يمكن بها أخذ الأصوات وتسجيلها بدقة وسرعة فى هيئة تشريعية. واعتقد اديسون أن مجلس الكونجرس الأمريكى سيرحب باختراعه. وعرض الاختراع على لجنة من مجلس النواب فلما رأى رئيس اللجنة سرعة ودقة الجهاز قال له :

(أيها الشاب، إن كان يوجد فى العالم اختراع لانود أن نراه فهو هذا الاختراع، وذلك لأن من أهم الأسلحة التى تملكها الأقلية البرلمانية لتمنع التشريع السيء هو تعطيلها لعملية أخذ الأصوات واختراعك هذا يحول دون ذلك) .

وكان إدسون يضحك كلما تذكر هذا الحدث.

ويقول اديسون (اخترعت فى أواخر ١٨٧٥ بمعملى جهازا لطباعة صور متعددة من الخطابات. وبعثت الاختراع إلى المستر أ.د.ديك من شيكاغو وقد عم هذا الاختراع العالم بأسره. وتعرف الماكينة باسم «الميموجراف» كما اخترعت ورق الزيت الذى يستعمل الآن فى جميع أنحاء العالم فى لف المسكرات ونحوها.

يقول فورد صاحب الكتاب وصاحب اديسون : «إن اديسون فى صباه قرر أن يقرأ مكتبه ديترويت العامة رفا بعد رف وبغير اعتبار لموضوعات الكتب وقد دهشت عند كل اجتماع به، من معلوماته الواسعة عن الطير والأشجار والأزهار. وله إلمام واسع بعلم طبقات الأرض وعلم الفلك، ومعلوماته عن التاريخ والسياسة واسعة جدا. كما اهتم بالفنون وكان له حساسية دقيقة للمظهر والشكل ولم يقع نظرى على أحد رسومه لم يكن جميلا حقا مع بساطة فيه تجعله أكثر تأثيرا من أية زخرفة. وأظن أن انسجام رسومه ناتج عن دقة ملاحظته.

وكان اديسون مرهف الحس سريع الخاطر يحب الجانب المشرق من كل شئ ويحب المرح ولا يتمسك بالرزانة إلى حد عدم الضحك ولا يتصور كيف يكون الإنسان غير مرح ولكنه كان ينظر إلى الناس على حقيقتهم وكما هم ولا يلومهم على ذلك».

هذه لمحات فقط عن هذا الكتاب الإنسانى. بقيت صفحة تقف وحدها كتابا. لهذا تستحق أن تكتب كاملة بلا اجتزاء. هذه الصفحة كتبتها زوجته بمناسبة الاحتفال بمرور مائة سنة على مولده، فى مجلة «كورونت».

(زوجى اديسون. تمتاز الأعمال التى أداها زوجى بأنها أعمال واضحة المظهر ملموسة الأثر. فالمصباح الكهربى والفونغراف وجهاز الصور المتحركة... هذه ومائة مثلها من المبتكرات هى الشاهد الحى الملموس على عبقريته الشامخة.

وإننى لعلى بينة- شأنى فى ذلك شأن سائر الناس فى جميع أنحاء العالم، من قيمة هذه الأعمال التى ابتكرتها عبقريته. ولكنى عندما أنظر إليها بعين الزوجة التى كانت أقرب الناس إليه مدى ست وأربعين سنة أرى أن هذه العبقرية لم تكن أولى مواهبه بل إنها تأتى فى الصف الثانى بعد صفاته وخلاله الذاتية. والحق إنه ليصعب على المرأة أن تقدر الرجل وتجله بغض النظر عن عبقريته ومجده إذا كان فى بيته شخصا فظا أو بليداً أو تافها أو أنانيا.

ولو أننى سئلت أى شئ فى زوجك كان أشد فى نفسك تأثيرا، لصعب علىّ أن أجد إجابة تقنعنى وترضينى ولكن الأفكار التى تمر بى عندئذ لن تكون بأية حال عن مخترعاته وكشوفه العلمية وإنما كنت أفكر فى أن زوجى كان رجلا كريما رحب الصدر واسع الفهم وكانت روحه مرحه فكهة لطيفة، وأذكر أنه كان فى أبوته لم يكن رجل علم ولارب صناعة بل كان صديق أولاده.

كنت أفكر فى هذا جميعا ولكن ثمة صفة ما تزال بارزة فى ذاكـرتى بعد انقضاء خمسة عشر عاما على وفاته تلك هى أنه كان أشد الناس مللا وضجرا وأشدهم صبرا وجلدا...!!

كان لايصبر على «الوقت» بل ينهبه نهبا. فكان يعمل عملا جاهدا متصلا كأنما يريد أن يعمل فى الساعة الواحـدة أكثر من ستين دقـيقة وفى اليوم الواحـد أكثر من أربع وعشرين سـاعة. وكان يكره أن يغيب عنه حل مـشكلة علمية فتضـيع عليه أسبوعا واحـدا بدون جدوى مع أنه كان ينفق الشهور وقد يقضى السنين قبل أن يهتدى إلى سر من أسرار العلم.

ولكن هذه الروح التى تضيق بالوقت ضيقا وتكره ضـياعه كرها، لم تمنعه من أن يكون طويل الأناة جميل الصبر مع الذين يعيشون معه.

إننى سأظل أذكره زوجا وأبا ثم أذكره بعد هذا عالما ومخترعا).

نموذج للرجـال فى حياة الأوطان... ونمـوذج للعصامـية... ونموذج للحياة الخـصبـة الوارفة الظلال.ونموذجا للزوج، والأب، والإنسان.